(٥٩)

"صورة الطفولة"

أنهى كل اجتماعاته ومقابلاته المهمة، ولم يتبق سوى خيوط ضوء رفيعة للشمس تعلن حتمية غياب قرصها المتوهج عن الأفق المرئى. ونظر إلى السماء وهى توشك أن تظلِم فتظلِم معها الأرض إلا من أضواء المصابيح فى الشوارع وأنوار اللافتات الإعلانية. لقد بلغ الخمسين من عمره وما زال ينزعج مع كل غروبٍ للشمس وحلولٍ للظلام، وكأن انسحاب الضوء من الأفق يُنذره بشيء ما يخيفه كلما جال فى خاطره. أوصد باب مكتبه وأغلق معه كل باب يطل منه على صورته القديمة، وهمَّ فى الحال بالذهاب إلى منزله.

دخل غرفته وبدأ بخلع ملابسه، فاجتذبته صورة وجهه فى المرآة وكأنها تشده عنوة ليقف هذه المرة متأملاً لها ومتفحصًا ما طرأ عليها من تغيير على مدار ما مضى من سنوات عمره. حاول أن يلتفت يمينًا ويسارًا متجنبًا إياها ولكنه لم يستطع أن يفر من قبضتها التى أحضرته إليها فى خضوع المستسلمين للجبارين المتغطرسين. ولما لم يجد بُدًا من مواجهة صورته فى المرآة، رفع جفنيه معلنًا إزاحة الستار عن عينيه، ومستسلمًا للنظر أمامه، ليبدأ اللقاء الذى طالما كان يفر منه متحججًا بالظروف تارة، وبالأمنيات طويلة الأمد تارة أخرة، وبانشغاله بما هو أهم تارة ثالثة.

لقد كان يتوقع حرارة ذلك اللقاء المحاط بالشوق لصورة وجهه القديمة، والمُسيَّج بالرفض المستترلصورة وجهه الحالي. إنه يعلم جيدًا ما طرأ عليه من تغيير، ويدرك لماذا اختفت ملامح براءة الطفولة من وجهه لتستقر مكانها ملامح أخرى قاسية وغريبة عنه لدرجة أن من كان يعرفه صغيرًا لم يكن قادرًا على التعرف عليه إذا رآه الآن. إنه يعلم جيدًا ماذا فعل فى حياته ليصبح ذلك الثرى المختال بثرائه أينما صال وجال، ويعلم جيدًا أيضًا كيف باع نُبله، وصدقه، وشرفه، وسمعته ليشترى بثمنٍ بخس سيارته الفارهة، وبيته الفاخر، ومكتبه الكبير، ويعلم كذلك أنه ليس مجبرًا على أن يستمر فى تلك الصفقة الخاسرة، وأن العودة لوجهه القديم ستكون ممكنة ومتاحة لو انتهز الفرصة التى تهديها له الشمس مع كل يوم تشرق فيه، والتى يراها متجسدة أمامه طوال يومه وحتى نهايته، ولكنها سرعان ما تغيب عن عينيه وتفر من قبضة يديه لأنه لم يمسك بها جيدًا معلنًا عن رغبته المُلحة فى الحفاظ عليها.